مشاهد وانطباعات وزير عدلية المغرب الخليفي عن الحجاز سنة ١٣٥٥هـ/١٩٣٧م

أ. د. محمد الشريف
كلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة عبدالمالك السعدي - تطوان - المغرب

دأب المغاربة على توالي الحقب والأعصار على زيارة الأماكن المقدسة بالحجاز، وأفرزت تلك الزيارات فنا أدبيا تاريخيا، هو فن الرحلة. وأسهم علماء المغرب إسهاما ملحوظا في تدوين الرحلة على مختلف أصنافها، وعلى رأسها الرحلة الحجازية، أو الرحلة الحجية. ولا يتسع المجال لإيراد عناوين مختلف الرحلات التي وصلتنا، ولكن لا بأس من الإشارة إلى أقدمها، مثل: رحلة ابن جبير، ورحلة ابن رشيد السبتي المسماة: "ملء العيبة بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة مكة وطيبة"(١)، ورحلة أبي القاسم التجيبي السبتي "مستفاد الرحلة والاغتراب"(٢)، ورحلة محمد العبدري "الرحلة المغربية"(٣).

ولم ينقطع هذا الصنف من التدوين في العصور الحديثة، بل زاد غزارة، فلدينا عشرات النصوص الرحلية، مثلا "الرحلة العياشية" لأبي سالم عبدالله العياشي، و"الرحلة الطنجوية الممزوجة بالمناسك المالكية"

---

(١) صدرت أجزاء منها بتحقيق د. محمد الحبيب بن الخوجة. وعن أهمية هذه الرحلة المكية، انظر د. أحمد حدادي، رحلة ابن رشيد السبتي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية (المغرب)، الرباط، ٢٠٠٣م.

(٢) مستفاد الرحلة المكية والاغتراب، تحقيق عبدالحفيظ منصور، الدار العربية للكتاب، ليبيا تونس، ١٩٧٥م.

(٣) العبدري، أبو عبدالله محمد بن محمد الحيحي، رحلة العبدري، تحقيق محمد الفاسي، الرباط، ١٩٦٨م.

للحسن بن محمد الغسال، و"دليل الحج والسياحة" لأحمد بن محمد الهواري، و"الرحلة الناصرية" لمحمد بن ناصر الدرعي، و"الرحلة الوزانية الممزوجة بالمناسك المالكية" لأبي العباس أحمد بن حسون الوزاني، و"لمحة بصر على البلاد المقدسة" لمحمد بن عبدالسلام السائح.

وكان لمدينة تطوان إسهام ملحوظ في هذا الأدب الرحلي، وتأتي "الرحلة المكية"(٤) للفقيه العلامة أحمد الرهوني على رأس ما ألفه علماء تطوان، وإن لم تكن أقدمها(٥).

صاحب الرحلة

هو الفقيه العلامة أبو العباس أحمد الرهوني التطواني، أحد أبرز علماء تطوان في القرن الرابع عشر الهجري. كانت له مشاركة ملحوظة في التأليف والتصنيف في أغلب العلوم القديمة المتداولة؛ فقد ألف في النحو والصرف والبلاغة، والسيرة والمناقب والتراجم، والفقه والنوازل والمنطق والتاريخ، والكلام والأدب؛ وكتب المقالة الصحفية. وأغلب مؤلفاته ما تزال مخطوطة، وما طُبع منها كان على عهد الحماية الأسبانية بتطوان، ومن مؤلفاته القيمة الشهيرة نذكر بالخصوص كتابه عن تاريخ تطوان، وعنوانه "عمدة الراوين في تاريخ تطاوين"، ويقع في عشرة أجزاء(٦). وقد تقلد أحمد الرهوني مناصب حكومية عدة، فكان قاضي تطوان على عهد الحماية الأسبانية بالمنطقة

---

(٤) أحمد الرهوني، الرحلة المكية ١٣٥٥-١٣٥٦هـ (١٩٣٧م)، معهد الجنرال فرنكو للأبحاث العربية الأسبانية، مطبعة الأحرار، تطوان، ١٩٤١م، ص ٢٤٧.

(٥) لعل أقدم رحلة تطوانية في العصر الحديث هي تلك التي دونها الفقيه أبو عبدالله محمد بن علي الرافعي التطواني الذي حج عام ١٠٩٦هـ، وعنوان رحلته "المعارج المرقية في الرحلة المكية المشرقية"، وتوجد مخطوطة في الخزانة الداودية بتطوان. انظر عنها د. حسن الوراكلي، "أصداء من حياة تطوان العلمية خلال القرن الحادي عشر الهجري في رحلة حاج تطواني"، ضمن كتابه: شذرات تطوانية، منشورات جمعية تطاون أسمير، الرباط، ٢٠٠٢م، ص ٧٩- ٩٦.

(٦) صدرت أجزاؤه الأربعة الأولى تباعا عن منشورات جمعية تطاون أسمير، تطوان (١٩٩٨- ٢٠٠٤م)، بتحقيق الدكتور جعفر بن الحاج السلمي.

الخليفية (١٩١٢- ١٩٥٦م/١٣٢٠-١٣٧٥هـ)، ووزير عدليتها، وشيخ جماعتها. إلا أنه قضى السنوات الأخيرة من عمره منبوذا من أصحاب السلطة والجاه، مبعدا عن الوظائف العلمية، منزويا في بستانه خارج تطوان، بعيدا عن الخلق، منقطعا لعبادة الله، إلى أن وافاه الأجل في ١٥ ربيع الثاني لعام ١٣٧٣هـ، الموافق ٢٣ ديسمبر ١٩٥٣م(٧).

الظروف التاريخية للرحلة

لقد فرغ أحمد الرهوني من كتابة رحلته - كما يقول - "يوم الثلاثاء تاريخ ٢٥ شوال الأبرك عام ١٣٥٩هـ الموافق ٢٦ نوفمبر سنة ١٩٤٠م"؛ أي: بعد مرور أربع سنوات على رجوعه من أداء فريضة الحج. ولم يكتب لهذه الرحلة - التي تولى معهد الجنرال فرنكو للأبحاث العربية الأسبانية، طبعها بتطوان سنة ١٩٤١م - أن تنال حظها من الانتشار، بل إنها مفقودة من ساحة المكتبات، لكون الأعداد المطبوعة كانت محدودة، ولا تباع للعموم، وبقيت تبعا لذلك في حكم المخطوط.

ولقد أبرز الرهوني في مقدمة رحلته كيف تم اختياره رئيسا للوفد الخليفي(٨) المتوجه لأداء مناسك الحج لسنة ١٩٣٧م (١٣٥٥هـ)، قائلا: "منذ اثنين وثلاثين من الأعوام، معلق القلب بقضاء فريضة حج بيت الله الحرام، وزيارة ضريحه [كذا في الأصل] عليه السلام، متضرعا لله عز وجل في الحصول على هذا المرام، إلى أن قضى الله الكريم - جل جلاله - في هذا العام، وهو عام ١٣٥٥هـ. وذلك أني كنت جالسا بجناني في ليلة الرابع أو الخامس من شهر شوال، إذ سمعت الفقيه سيدي محمد أبا العسل بصوته الجهوري في المذياع التطواني: "إن فخامة

---

(٧) ترجمة العلامة أحمد الرهوني مفصلة تجدها مع ذكر مصادرها في مقدمة تحقيق الجزء الأول من عمدة الراوين في تاريخ تطاوين، تحقيق جعفر بن الحاج السلمي، منشورات جمعية تطاون أسمير، ١٩٩٨م، ص ١٦-٣٠.

(٨) أطلق على المنطقة الشمالية من المغرب التي كانت تحت الحماية الإسبانية ما بين ١٩١٢ و١٩٥٦م، اسم "المنطقة الخليفية"، وكان يحكمها خليفة للسلطان، أما المنطقة التي كانت تحت الحماية الفرنسية فسميت بـ "المنطقة السلطانية".

كاد عقلي يطير فرحا من هذا الترشيح الكريم لهذا المنصب الفخيم

الجنرال فرنسيسكو فرنكو قد هيأ باخرة جميلة لركوب الحجاج المغاربة من سبتة إلى جدة، وأن الحجاج المذكورين سيكونون تحت رئاسة العلامة سيدي أحمد الرهوني"، فكاد عقلي يطير فرحا من هذا الترشيح الكريم لهذا المنصب الفخيم الذي صدر من الخليفة الأعظم، سيدنا ومولانا الحسن بن المهدي العلوي". ثم استقبل في اليوم التالي من المقيم العام الأسباني (بيكبيدير)، فأبلغه بهذا الترشيح، وأن فرنكو "أنعم بالمركب المذكور على الحجاج المغاربة بمناسبة إخلاصهم في مساعدته على الانتصارات الباهرة التي نالها على أعدائه"، ثم أعلمه بترشيحه أولا قبل السفر للحج "للطواف على مستشفيات أسبانيا، وزيارة مجاريح المغاربة الذين بها وتسليتهم، وشكرهم نيابة عن سيدنا الخليفة وفخامة الرئيس فرنكو على ما قاموا به من الأعمال الشريفة الجليلة..."(٩).

ترتبط الرحلة - التي قام بها الرهوني إلى البقاع المقدسة سنة ١٩٣٧م (١٣٥٥هـ) - بظروف سياسية أملتها مصالح أسبانيا آنذاك؛ للتقرب إلى مغاربة الشمال خاصة، والعالم الإسلامي عامة بعد سلسلة من الانتصارات التي حققها الجنرال فرنكو ضد أعدائه الجمهوريين منذ سنة ١٣٤٩هـ/ ١٩٣١م. وقد عرفت أسبانيا بين هذه السنة وسنة ١٣٥٤هـ/ ١٩٣٦م أزمة اقتصادية خانقة، كان الجنرال فرنكو خلالها مجرد قائد لفيلق عسكري بتطوان، يخضع لأوامر الجيش الجمهوري. وسرعان ما أعلن في ١٨ يوليو ١٩٣٦م (٢٩ ربيع الآخر ١٣٥٥هـ)، عن قيام الحركة الوطنية الأسبانية، فانحازت لجانبه كل من ألمانيا وإيطاليا، مقابل انحياز روسيا لجانب الحاكمين اليساريين؛ لتندلع حرب أهلية أسبانية طاحنة بين الطرفين، جُنّد فيها عدد كبير من المغاربة إلى جانب قوات فرنكو. وكان هذا الأخير يعتقد أن أمر

---

(٩) الرهوني، الرحلة المكية، ص ٦.

الحرب سرعان ما ينتهي، ولكنها طالت ثلاث سنوات، ولم تضع أوزارها إلا بعد اندحار القوات الجمهورية، ودخول جيش فرنكو مدينة مدريد، في شهر أغسطس ١٩٣٩م (جمادى الثانية ١٣٥٨هـ).

لقد تمت "الرحلة المكية" إلى الديار الحجازية في ظرفية تاريخية مطبوعة بالحرب الأهلية الأسبانية، وتندرج ضمن حملة إعلامية خطط لها فرنكو لتهدئة القواعد الخلفية للجيوش الأسبانية بشمال المغرب⁽¹⁰⁾ من جهة، ومن أجل كسب عطف العالم الإسلامي وهو يخوض الحرب الأهلية ضد من يصفهم بالشيوعيين الجمهوريين أعداء الكنيسة والإسلام من جهة أخرى. وقد جهز باخرة "من أجمل طراز وأحدثه، مشتملة على كل المرافق التي يتوقف عليها الحاج في ذهابه وأوبته"⁽¹¹⁾، سماها (المغرب الأقصى)، ووضعها رهن إشارة الحجاج المغاربة بالشمال، ووضع أثمانا رمزية للسفر، "لا يمكن أقل منها في هذا الزمن، مع التسهيلات التي لا أعلى منها"⁽¹²⁾ حسب تعبير الرهوني، وذلك ليستقطب أكبر عدد من المسافرين، وأرسلهم إلى ميناء سبتة - القريب من تطوان - لتكون انطلاقتها من هناك نحو الحجاز، وخرجت هذه الباخرة من ميناء برشلونة أواخر شهر ديسمبر ١٩٣٥م (رمضان ١٣٥٤هـ)، تحت وابل من القنابل كانت ترسلها الحربية الجمهورية للنظام الحاكم، فسلمت من قذائفها. وكان مقر فرنكو أثناء الحرب هو مدينة (صلامنكا) المتحصنة جبليا، والواقعة وسط الأندلس، منها يوجه تعليماته العسكرية. ومن أجل أن يوسع فرنكو الدعاية الكافية لهذه الرحلة، انتدب مجموعة من أعيان مدينة تطوان، وعلى رأسهم الفقيه أحمد الرهوني؛ للإشراف على أمر الرحلة بما يستدعيه الموقف الديني من وعظ وإرشاد وشرح

---

(١٠) أحمد إحدوثن، "حفريات معرفية في ذاكرة الشمال المغربي"، حوليات الريف (مجلة)، العدد الثاني، (الحسيمة، المغرب) ١٩٩٩م، ص ١٤٥.

(١١) الرهوني، الرحلة المكية، ص ٤٢.

(١٢) نفسه، ص ٢٠.

مناسك الحج، وتيسير ظروفه على أحسن حال. وشاع الإعلام في المدينة، وفرح الرهوني فرحا كبيرا برحلة الحج، وهو بعد لم يؤد الفريضة كعالم وفقيه ومربي الأجيال العلمية. وللمزيد من كسب التأييد لنظام فرنكو وموقفه التضامني مع قضايا الأمة العربية الإسلامية، نظم للرهوني زيارة باسم وفد الخليفة السلطاني بتطوان، إلى مستشفيات أسبانيا الأندلسية التي يرقد بها المرضى والجرحى المغاربة الذين أصيبوا في الحرب الأهلية في كل من إشبيلية وقادس وقرطبة، وغيرها من المدن(١٣)، كما أمر بتخصيص استقبالات شعبية منقطعة النظير للفقيه الرهوني، كانت في بعض الأحيان تصل إلى حشود ملأت كل الأزقة والساحات. ولم يفت فرنكو أن يستقبل شخصيا الفقيه الرهوني يوم ١٩ يناير ١٩٣٧م (٨ ذو القعدة ١٣٥٥هـ)، ويعقد معه جلسة لتبادل الكلمات، وتبليغ رسالة المحبة والاحترام إلى جلالة الملك عبدالعزيز، مع هدية عبارة عن سيارة فخمة؛ لتوطيد العلاقة بين أسبانيا والمملكة العربية السعودية(١٤).

وقد ارتجل الفقيه الرهوني بين يدي الجنرال فرنكو كلمة، مما جاء فيها:

"يا فخامة الرئيس، إن سعادة نائبكم المقيم العام، ضون خوان بيكبيدير، قد انتدبني باسمكم وباسم مولانا الخليفة الحسن لرئاسة الحجاج الذين يحجون في هذا العام تحت إحسانكم؛ كي أبلغ العالم الإسلامي الذي يقصد تلك الأراضي المقدسة وجلالة ملك المسلمين مولانا عبدالعزيز بن سعود سلامكم الخصوصي المقرون بكل احترام واعتبار، وأعرفهم بمقدار محبتكم وتعظيمكم لجميع المسلمين الذين يبلغون الآن أربعمئة مليون، وبالأخص مسلمي المنطقة الخليفية، وعلى رأسهم سمو الخليفة المعظم"(١٥).

---

(١٣) نفسه، ص ٢٠-٣٦.

(١٤) نفسه، ص ٤٣.

(١٥) نفسه، ص ٣٦.

ويفصح الرهوني جليا عن مرامي إرسال فرنكو للوفد الخليفي للديار المقدسة وأهدافه قائلا: "فلا شك أن هذا العمل العظيم سيعود عليه [فرنكو] وعلى أمته بكل خير، وأنه سيرنّ صداه الحسن الجميل في آذان المسلمين، في مشارق الأرض ومغاربها، وسيزرع في قلوبهم حبه والدعاء له ولجنوده الأبطال، بكل خير وانتصار"(١٦).

لقد قسم الفقيه رحلته قسمين: قسم يتعلق بزيارته إلى أسبانيا وملاقاته لفرنكو وما شاهده هناك (وهو القسم الذي لخصناه سابقًا)، وقسم يتعلق بمهمته رئيسًا لوفد الحجاج، وما قام به من دور الإرشاد والوعظ، ومقابلة الملك عبدالعزيز بعد أداء الفريضة، والرجوع إلى ميناء سبتة.

ومن نافلة القول: إن الفقيه أحمد الرهوني الذي كان يتمتع بملكة علمية واسعة قد سجل في الرحلة كل المعلومات التي شاهدها، بل شد انتباهه إلى أن يقارن بكل جرأة بين العالم المتحضر الذي يزوره (خاصة أسبانيا وإيطاليا)، وعالمه ومحيطه المغربي، فيستخلص العبر، ويوجه النصائح، ويدعو لتدارك العلم بالقضاء على الجهل، والانكباب على المعرفة والتعلم(١٧). ولا يتسع المجال للتطرق إلى مجمل مشاهدات الرهوني ومضمون رحلته، لذا سنكتفي في هذه الدراسة بإيراد نصوص معبرة تسلط الضوء على نقطتين أساسيتين هما:

الأولى: وصف الرهوني لحفاوة الاستقبال الذي خصصه الملك عبدالعزيز آل سعود للوفد المغربي.

الثانية: وصف الرهوني لمعالم التطور العمراني الذي لفت انتباهه بالمملكة العربية السعودية آنذاك.

---

(١٦) نفسه، ص ٢١.

(١٧) نفسه، ص٢٧-٢٨؛ وانظر: محمد الحبيب الخراز، الفقيه أحمد الرهوني، من أجل الذكرى، جريدة العلم (المغرب)، العدد ١٩١٦٥، الاثنين ٩ ديسمبر ٢٠٠٢م (٥ شوال ١٤٢٣هـ).

١ - الوفد الخليفي في ضيافة الملك عبدالعزيز آل سعود

أ - هدية الخليفة سمو الأمير مولاي الحسن ورسائله إلى الملك عبدالعزيز آل سعود

يقول الرهوني في رحلته إن: "مولانا الأمير، هيا لنا هدية فاخرة من الآثار المغربية؛ لنصحبها في يدنا لصاحب الجلالة الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمان آل سعود، ملك الحجاز ونجد والمملكة العربية السعودية، وتلك الهدية هي: ٢ زرابي صنعت بدار الصنعة بتطوان، ٣ فنارات طول كل واحد منها نحو المطر في العرض ٧٠ سنطيمترا، في غاية الجودة والحسن، مكحولتان بلديتان من عمل تطوان القديم مخططة أسرتهما وزنادهما وجعابهما بخطوط الذهب والفضة، ٣ خناجر أغمدتها مذهبة مفضضة من أعلى ما يوجد في الدنيا، كساءان رفيعان جدا جليا من فاس، ٤ سلاهم من عمل السوسدي، سرجان مغربيان، هذه لخصوص جلالة الملك معها عشرون ألف فرنك، عشر تفرق على العلماء والفقراء من أهل مكة، وعشر تفرق على أهل المدينة المنورة"(١٨).

وبعد ذلك يورد الرهوني نص الرسالة، التي بعثها سمو الخليفة السلطاني للملك عبدالعزيز آل سعود، ونصها:

"الحمد لله وحده، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

جلالة الملك السلطان، سلطان المسلمين، سيدي عبدالعزيز بن عبدالرحمان آل سعود، أعزك الله ونصرك، وسلام عليك ورحمة الله وبركاته، وبعد:

فإننا بمعونة من بيده الحول والقوة، وجهنا لجلالتكم صحبة مندوبنا الفقيه السيد أحمد الرهوني ما بين طرته، فالمرجو من فضلكم

---

(١٨) الرهوني، الرحلة المكية، ص ٤١.

إحلال ما هو لجلالتكم محل القبول؛ لأنه كتذكرة من أخ محب مخلص أو ولد مرضي، وإحلال ما هو للحرمين الشريفين محله.

والمولى سبحانه يبقيكم ويرضيكم، وعلى المحبة والسلام

في ١٢ ذي القعدة الحرام عام ١٣٥٥هـ.

أما الرسالة الثانية لجلالته أيضا، فنصها:

"من عبد ربه المتوكل على الله الخليفة السلطاني بعاصمة تطوان، الحسن بن المهدي بن إسماعيل العلوي، أيده الله وأرشده، إلى صاحب المقام الرفيع والجناب المنيع، جلالة ملك الديار الحجازية وسائر الأقطار العربية النجدية، السلطان عبدالعزيز آل سعود، السلام عليكم ورحمة الله، وبعد.

فرغبة منا في القيام بإظهار شعائر الإسلام، وإحياء رسومه في سائر الربوع والآكام، قد قمنا ببذل المجهودات الممكنة في ترغيب رعيتنا في الحج إلى الكعبة المشرفة، وزيارة البقاع المقدسة، بعدما أعددنا لهم باخرة من أجمل طراز وأحدثه، مشتملة على كل المرافق التي يتوقف عليها الحاج في ذهابه وأوبته، وانتخبنا من بين أجلة علمائنا ونخبة فقهائنا العلامة النبيل، والمحدث الجليل الفقيه السيد أحمد الرهوني، وعيناه مرشدا للحجاج وواعظا، وجعلناه رئيسا عليهم ناظرا، وإننا قد وجهنا الجميع، وفوضنا أمرنا فيهم إلى الله ثم إليكم، لعلمنا بأنكم ستشملونهم بحفظكم ورعايتكم، والله يطيل حياتكم، ويؤيد ملككم، والسلام.

تطوان، في ١١ ذي القعدة الحرام عام ١٣٥٥هـ، موافق ٢٣ يناير سنة ١٩٣٧م"(١٩).

---

(١٩) نفسه، ص ٤٢. ونجد لهذه الرسالة الخليفية مثيلاتها، كتلك الصادرة عن السلطان محمد الخامس، يوصي فيها بالوفد الرسمي للمنطقة السلطانية الذي حج سنة ١٩٤٧م (١٣٦٦هـ)، ونجد نصها في رحلة محمد بن عبدالسلام السائح، ومما جاء فيها: "من عبدالله المتوكل على الله أمير المؤمنين... ملك المغرب الأقصى =

ب - في ضيافة الملك عبدالعزيز آل سعود

والواقع أن الوفد المغربي الخليفي كان محطّ ترحيب وحفاوة وإكرام كبير من مختلف الدوائر الرسمية السعودية، حيثما أقام وارتحل، "حتى كنا - يقول الفقيه الرهوني- بشهادة الله، كأننا بين آبائنا وإخواننا وأبنائنا، ولذلك كنا نلفت أنظار العالم الإسلامي الذي حج هذا العام المبارك إلينا، وكنا ككعبة القصاد للسلام علينا، والسؤال عن أحوالنا، كل ذلك نشأ عن اعتبار جلالة الملك ورجال حكومته، وإنزالنا في دور ضيافته الخاصة، وإركابنا المراكب الرفيعة مجانا وإحضارنا في جميع محافله التشريفية، وإحلالنا في الأماكن الرفيعة، والتنويه بنا بين الخاصة والعامة"(٢٠).

وقد ترك لنا الرهوني شهادات متفرقة عن هذه الحفاوة وذاك التكريم، نذكر منها مثلا قوله حين وصول الباخرة إلى ميناء جدة: "بعد ذلك صفى المركب أوراقه مع المكلفين، ومن جملتها لبرة ذهب عن كل حاج، ضريبة الحجر الصحي، التزم الكمندار أداءها، وضمنه المعتمد السياسي الإيطالي، ولما التقينا جلالة الملك ودفعنا له المكاتب الشريفة

= محمد بن يوسف بن الحسن... إلى حضرة الأخ الهمام سليل الأمراء العظام الحائزين من الفضائل أسناها، ومن مراتب العز أعلاها، المحلى بكل وصف محمود، جلالة الملك أبي فارس عبدالعزيز آل سعود، دامت شموس سعده في إشراق.

وبعد... هذا وبمناسبة سفر رعايانا حجاج المغرب الأقصى لتلك البقاع الطاهرة، أوفدنا لحضرتكم السامية أحد كبار العلماء بمملكتنا المغربية، قاضي عاصمتنا الفاسية الفقيه العلامة المتضلع السيد محمد السائح، بصفته رئيسا للوفد المغربي المؤلف من ستة أعضاء من سراة مملكتنا، وقلّدناه فخر النيابة عنا في إبلاغ جلالتكم أسمى عواطفنا وخالص مودتنا مع ما نتمناه لشخصكم السعيد من الهناء والعمر المديد. فالمؤمل أن يحظى منكم بمزيد التقدير والعناية، والاعتبار والرعاية، ووجهنا معه نصيبا من المال منه ما هو معين للحرمين، ومنه ما كلفناه بتوزيعه على فقراء البلدين... ونلتمس من أخوتكم الدعاء لنا تجاه البيت الحرام والملتزم والمقام، أبقاكم المولى في عزّ لا تفنى ملابسه ولا يحيد عن المجد والسؤدد مُلابسه. صدر بمدينة الرباط، عاصمة المغرب الأقصى في ثامن عشر ذي القعدة الحرام عام خمسة وستين وثلاث مئة وألف". محمد بن عبدالسلام السائح، لمحة بصر على البلاد المقدسة، تحقيق الدكتور محمد قرقزان، الرباط، ١٩٩٥م، ص ١٤٦- ١٤٧.

(٢٠) الرهوني، الرحلة المكية، ص ١٨٨.

الخليفية، أصدر عفوه عن تلك الضريبة التي تبلغ نحو ٢٠٠ ليبرات، ثم أذنوا الحجاج فنزلوا ونزلنا..."(٢١). وقبل وصول الوفد المغربي إلى مكة، وضع وكيل وزارة الخارجية الحجازية رهن إشارته "سيارة فخمة جديدة"، وأرسل برقية "إلى من يلزم لإنزالنا في أوتيل الحكومة الحجازية بمكة، على نفقة جلالة الملك نصره الله، مدة إقامتنا بمكة وما حولها"(٢٢). وحينما أهدى جلالة الملك جهة كاملة من حزام كسوة الكعبة المشرفة لسمو الخليفة السلطاني الحسن بن المهدي، أهدى الملك للرهوني قطعة منها مطروزة بسورة الإخلاص، واشترى الفقيه قطعة أخرى بنحو ستين ريالا، أهداها للزاوية التيجانية بتطوان(٢٣).

جـ - صورة الملك عبدالعزيز آل سعود في رحلة الرهوني

إن الصورة التي تركها لنا الفقيه الرهوني عن الملك عبدالعزيز آل سعود هي صورة تسطر تاريخ هذا الملك اعتمادا على مصدر كتابي، ومن جانب آخر هي صورة كوّنها الرهوني من خلال مشاهدته العيانية، وهو بين يدي هذا العاهل.

"فجلالة الملك هو إمام المسلمين سيدي عبدالعزيز الإمام بن عبدالرحمان بن الإمام الفيصل بن تركي بن عبدالله بن محمد بن سعود، ينتهي إلى أسد بن ربيعة بن نزار. ولد ١٠ الحجة عام ١٢٩٩هـ/ ٢١ أكتوبر سنة ١٨٨٢م(٢٤). دخل المكتب وعمره سبع سنين، وختم القرآن الكريم وهو ابن ١١ سنة، ورافق والده في غزواته، وكان يحضر مجالسه، وتعلم حينئذ التوحيد ومبادئ الفقه في كراسة أعدها له والده. وفي ٣ شعبان عام ١٣١٩هـ(٢٥) ابتدأ انتصاره حيث

---

(٢١) نفسه، ص ٧٠.

(٢٢) نفسه، ص٧٣.

(٢٣) نفسه، ص٩٣.

(٢٤) الراجح هو أن مولد الملك عبدالعزيز كان في سنة ١٢٩٣هـ الموافق ١٨٧٧م.

(٢٥) الصحيح هو ٥ شوال ١٣١٩هـ.

انتصر على ابن الرشيد، وأخرجه من مدينة الرياض وحازها، ولم يزل في انتصار إلى أن استولى على الحجاز عام ١٣٤٣هـ/ ١٩٢١م(٢٦)، ولم يزل ملكا بها إلى حيث يشاء الله. وهو رجل عالم عاقل شهم شجاع مقدام عزيز النفس عالي الهمة، بار بوالديه، رحمهما الله، كثير الصلاة بالليل والنهار، كثير الأذكار قليل النوم عزوف عن لذة الأكل والشرب إلا ما لا بد منه، كريم النفس، سخي اليد إلى أقصى درجة، فصيح اللسان، مفوه يتكلم ويخطب على البداهة كأنه طالع ليالي عديدة، يستحضر الآيات والأحاديث كأنها مكتوبة أمامه، ملابسه بسيطة جدا نظيفها ونظيف البدن، يكثر الاغتسال حتى ربما يغسل في يوم الصيف ست مرات، له خاتم فضي فصه من عقيق، ويلبس النظارات على عينيه، ولكن يقرأ بدونهما. يعتني بالسيوف والخيول ويعرف أصنافها وجيدها، وله منها عدد ويستغني بها عن البندقيات، وإن كانت له بندقية من نوع موزر. وهو قليل النوم، يكتفي بنوم ست ساعات، وله عدة أولاد يزيدون على ٢٥ أجلهم وأكبرهم وولي عهده سعود، الذي ولد عام ١٣٢٩هـ(٢٧)، ويليه النائب العام وولي الحجاز ووزير الخارجية والداخلية فيصل المولود عام ١٣٢٤هـ، وعند كل واحد منهم أوسمة فاخرة من دول عظمى. ولما استولى على الحجاز ضمه إلى نجد وأطلق على الكل اسم المملكة العربية السعودية، ونظم لها أنظمة كفيلة بمصلحتها الدينية والدنيوية"(٢٨).

لقد نقل الرهوني بعض هذه المعلومات عن كتاب شبه رسمي، هو كتاب "البلاد العربية السعودية" لمعالي وكيل الخارجية السيد فؤاد حمزة. على أن الصورة التي يقدمها الرهوني من خلال ما شاهده ودونه هي صورة أكثر حيوية، وأعمق دلالة، كما يتضح من هذه المقتطفات.

---

(٢٦) الصحيح هو عام ١٩٢٤م.

(٢٧) الصحيح هو عام ١٣١٩هـ.

(٢٨) الرهوني، الرحلة المكية، ص ١٠٩- ١١٠.

د - الوفد الخليفي بين يدي جلالة الملك عبدالعزيز

"جرت عادة هذا العاهل العظيم والملك الجليل أن يحج كل عام، ويتفقد أحوال المسلمين، ويتعرف إلى جميع أصناف المسلمين، ويتعرفوا إليه، فيكرمهم إكراما عاما، ويحضر الصيني إلى جانب العربي والمغربي، ويسأل البعض عن البعض، ويخطب الخطباء، وينشد الشعراء، ويخطب جلالة الملك فيهم خطبا كلها نصائح ودلالة على وجوب اتحاد المسلمين في الدين، في التوحيد، في العمل بالكتاب والسنة، في التباعد عن البدع والمحدثات، وتطير تلك النصائح في صحف العالم التي يهمها أمر الإسلام، ولذلك لما كان غروب يوم الثلاثاء رابع ذي الحجة من عام ١٣٥٥ دوت القلعة في إحدى وعشرين طلقة من مدافعها إعلاما بوصول جلالة الملك آتيا من الرياض، فاهتزت أرجاء المدينة من ذلك الإعلام، وشرع الناس عموما وخصوصا يستقبلون جلالة الملك عبدالعزيز فرحين مستبشرين، ولما كانت الساعة الثالثة من ليلة الأربعاء خامس ذي الحجة نزل إلى المسجد محرما بالعمرة بعد العشاء بساعة ونصف...

وفي صباح يوم الأربعاء ٥ ذي الحجة برز للناس في جلالته ومهابته، تحفه العائلة الكريمة وتحيط به وزراؤه ورجال دولته العزيزة، فصار الناس حجاجا وغيرهم يفدون عليه جماعات وفرادى لتحميده بالسلام، والتمتع بطلعته البهية، وقد استدعانا وكيل معالي وكيل الخارجية السيد فؤاد حمزة للسلام عليه، ووجه لنا سيارة فخمة توجهنا عليها في ضحى يوم الخميس ٦ حجة، ودخلنا عليه، فقام لنا، ورحب بنا، وسلمنا عليه واحدا بعد واحد، ثم أجلسني معه على المصطبة التي هو جالس عليها، وأصحابي جالسون في مصطبة أخرى، فقلتُ له:

السلام عليكم يا إمام المسلمين، يا صاحب الجلالة إننا وفد المغاربة أوفدنا إلى الحرمين الشريفين أميرنا المحبوب المفدى منا

بجميع القلوب، مولانا الحسن بن الخليفة مولانا المهدي، بن مولانا إسماعيل، بن سلطان المغرب الأقصى، سيدي محمد بن عبدالرحمان الحسني العلوي، وأمرنا بإهداء عاطر تحياته، وأطيب سلامه إلى جلالتكم المعظمة، فنرفع إليكم، يا صاحب الجلالة، نائبين عن سموه، وعن جميع إخواننا المغاربة، وباسم وفدنا الخاص سلام الجميع وتحياته، وننهي إلى جلالتكم أن جميع المسلمين مخلصون في محبتكم لما أنعم الله به عليكم من استقامة أحوالكم، وعدلكم في الأحكام، وقيامكم بشريعة خير الأنام، عليه أفضل الصلاة والسلام، وإقامتكم الحدود، وسدلكم الأمان التام على جميع رعاياكم، وخصوصا من التجأ إلى بلد الله الحرام، فلتهنأ يا صاحب الجلالة بفضل الله عليكم، وبهذه المناسبة أتشرف بأن أرفع إلى جلالتكم تحية رئيس الدولة الأسبانية الجنرال فرنسيسكو فرنكو، الذي بينه وبين سمو مولانا الخليفة وداد خاص، وله محبة تامة في المسلمين عموما، وفي جلالتكم خصوصا، أدامكم المولى قائمين على السنة النبوية وأحياها بكم، وأحياكم بها أنتم وأنجالكم الكرام إلى يوم القيامة، والحمد لله في المبدأ والختام"(٢٩).

هـ - الملك عبدالعزيز مخاطبا الوفد الخليفي: "إني أحبكم، معشر المغاربة، محبة خاصة..."

"ثم جلست وجلس هو كما مر، ونادى على القهوة على عادته، فإن قرى الضيف عندهم شرب القهوة، ثم قال:

مرحبا بكم وبوفدكم وبسلام سمو الخليفة وبتحية الجنرال فرنكو. وإني أشكركم على هذه العبارات التي فهتم بها، ثم سألنا عن حالتنا الدينية، فأجبناه بأنا على غاية ما يكون، ثم سألنا عن حال سمو الخليفة، فأجبناه بأن حالته حال شريفة مبنية على أسس الدين

---

(٢٩) نفسه، ص ١١٢.

والسنة... ففرح بذلك غاية الفرح، ودعا له بكل خير وقال لنا: إني أحبكم، معشر المغاربة، محبة خاصة؛ لأنكم متمسكون بدينكم غاية التمسك، لا تأخذكم في ذلك حيل ولا ترهات، ولما فيكم كمال الرجولة؛ لأني رجل بمعنى الكلمة، فأحب الرجال كذلك. ثم سألنا عن أحوال الجنرال فرنكو، فأجبناه بأنه قائم على ساق الجد في مقاتلة الشيوعيين اللادينيين، هو وأعوانه، فأثنى عليه خيرا، وتمنى له الانتصار، على الشيوعيين، قائلا: لأن الشيوعية أقبح خصلة ظهرت في عوالم هذا العصر، ويجب على كل من قدر على محوها من الوجود أن يبذل كل ما في وسعه لمحوها... ثم أوصانا على المحافظة على الدين وقواعده، وقال كما قال سيدنا عمر، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: "نحن قوم أعزنا الله بالدين، فإذا تعززنا بغيره أذلنا الله".

وبتمام هذه المذاكرة كنا شربنا القهوة، فقمنا وقام معنا وودعناه بتقبيل يده الكريمة، وخرجنا مسرورين أعزاء، كما دخلنا ولله الحمد وله المنة"(٣٠).

و - حفلة عشاء مع جلالة الملك عبدالعزيز آل سعود

وصلت للوفد المغربي دعوة للعشاء مع جلالته في الغروب، "وقد كان عادته منذ استولى على الحجاز أن يقيم احتفال عشاء لأعيان الحجاز، فيجتمع على مائدته نحو الخمسمئة نفر، ويجلسون على مائدة واحدة طويلة، ولكن هذا العام الذي كثر فيه الحجاج حتى كان عدد الحجاج القادمين في البحر خمسين ألفا، أما عدد حجاج البر فبلغوا ما يقرب من مئة وخمسين ألفا، فصار الجميع تقريبا من مئتي حاج، حسبما صرح لنا بذلك نائبه العام، ولده سيدي فيصل - حفظه الله - فقد اقتضى نظره الأسد أن يقسم ذلك إلى عدة أقسام، فجعل إكراما للهنود والأعاجم، وإكراما للمصريين خصوصا، وإكراما للعرب، لذلك كان عشاؤنا مؤلفا من المغاربة الأربعة: طرابلس وتونس والجزائر

---

(٣٠) نفسه، ص ١١١- ١١٣.

ومراكش، ومن يمن وحضارم وشوام، وبقية أراضي المغاربة، فكان ذلك العشاء شاملا لأكثر من مئة نفر... فدخلنا القصر العالي فوجدنا جلالة الملك وجميع المدعوين في صالون عظيم رفيع، ولما رآنا قام من موضع جلوسه، وسلمنا عليه، على عادته الكريمة مع كل داخل عليه، ثم جلس وجلسنا معه في المحل المعد لنا. ثم نودي على القهوة، فشربنا، وهي عبارة عن إبريق نيكل يحمله أحد الخدمة بيمينه، ويحمل في اليسرى عدة فناجين، فيبدأ الملك ويصب له قطرة من قهوة البن اليمني مرة بدون سكر، فيشربها في شربة واحدة، ثم يناول الفنجان خادما آخر يكون وراء الأول، وهكذا يمضي عن يمين الملك إلى أن ينتهي، ويكون عدد هؤلاء القهواجية عدد يطوف على الناس عدة مرات، والفناجين التي تكون بيده، أظنها ستة إلى عشرة.

فلما فرغنا من القهوة، قام جلالته فقمنا جميعا وراءه إلى أن دخلنا إلى قاعة الطعام، فإذا مائدة طويلة آخذة من أول القاعة إلى آخرها وعليها كراسي بعدد المدعوين، والمائدة مملوءة بصحون كثيرة كبيرة وصغيرة، بعضها عليه أكباش مشوية، وبعضها عليه دجاج مشوي، وبعضها عليه أرز مطبوخ باللحم، وبعضها عليها خضر وشلاظات وفواكه؛ من ليشين وتفاح وإجاص وموز ودلاح وغير ذلك، وأمام كل كرسي صحون فارغة وسكاكين وكؤوس ماء، فجلس جلالته على رأس المائدة من الجهة الشمالية، وعلى يمينه ويساره أبناء الإمام يحيى اليمني، ثم العلماء، ومنهم الشريف سيدي أمين الحسيني، مفتي القدس وجماعة، وكنت أنا في الطبقة الرابعة.

ثم شرعنا في الأكل، وصار كل واحد يغرف في صحنه من الصحون التي أمامه كل ما يشتهيه، وجلالته يتحدث مع الجميع بصوت جهوري مرخم، ولسان فصيح، ويتذاكر في العلم والعمل، ويقول: إن العلم النافع هو الذي يكون معه العمل، وإلا فهو ضرر على صاحبه. ويستدل على ذلك بالآيات والأحاديث، والكل يتجاذب معه

أطراف الحديث، إلى أن فرغ من الأكل، وعاد الجميع إلى صالون القهوة والراحة، فأديرت القهوة ثم الشاي الأسود على جميع الحاضرين. ثم خطب بيروتي خطبة لطيفة أثنى فيها على جلالة الملك بما هو أهله"(٣١).

ز- وداع جلالة الملك وإهداؤه الوسام الشريف المهدوي

في ليلة الجمعة ١٥ حجة عام [١٣٥٥هـ] موافق ٢٦ فبراير عام [١٩٣٧م] استدعى جلالة الملك الرهوني بوساطة معالي وكيل الخارجية لوداعه، فذهب إلى قصره العامر صحبة معالي الوكيل المذكور، وبيده الوسام المهدوي من نوع السمو، الذي كان هو أعلى وسام في المنطقة الخليفية، ليقلد جلالته إياه، ودخل عليه وهو وحده في صالونه الأكبر، وليس معه غيرنا، فلما دخل الرهوني قام له الملك، فقبل يده، وسلم عليه، ثم قال للملك:

" أنا ورفاقي قائمون يا جلالة الملك، قد أكثر الخطباء والشعراء من مدحك بما أنت أهل لهن ولأكبر منه، وفاتهم أن يشيروك بشيء أكرمك الله به في كتابه العزيز؛ (فتشوقت نفسه لسمع ذلك واشرأب إليه) فقلت: ألا وإن الله عز وجل يحبك (فازداد تشوفه)، فقلت: يحبك لأنه أكرمك بالقسط، وقد قال جل من قائل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [**الحجرات**: ٩]، وقال عليه السلام: المقسطون على منابر من نور يوم القيامة عن يمين الرحمان، فاستنار وجهه لهذه البشارة، ثم تماديت في كلامي وقلت: ومن المعلوم أن الله إذا أحب عبدا نادى منادٍ في السماء والأرض: إن الله يحب فلان، فأحبوه. فلذلك أحبك أهل الأرض وأهل السماء حتى ملأ حبك وحب التقرب إليك ما بين السماء والأرض، ومن جملتهم أميرنا المحبوب مولانا الحسن أيده الله، فإنه يحبك محبة خالصة، والبرهان على ذلك أنه وجه معنا بموافقة الجنرال فرنكو هذا الوسام الشريف، الذي هو أعلى درجات السمو. فتفضل - أيدك الله - بقبوله وتقلده، ولكم الشرف كله،

---

(٣١) نفسه، ص١١٥ - ١١٦.

وليكن هذا برهانا على تنازلكم إلى قبول تبادل أسباب الوداد بين الملوك والأمراء. وفي الختام نضرع لجلالتكم قبول فائق احترامنا في كل ساعة، وخصوصا في هذه الساعة التي نودعكم فيها، ونطلب صالح أدعيتكم لنا ولجميع المسلمين، أدام الله عزكم، وختم عليكم بالسعادة والسلام.

ثم قرأ الرهوني الظهير الذي كان بيده، المتضمن الإنعام عليه بالوسام المذكور، ثم ناوله الظهير والوسام، فقبلهما بيده الكريمة، ومدهما لمعالي وكيل الخارجية، وقد أظهر السرور بهذه الهدية الثمينة، وصرح للوفد المغربي بوصول الهدايا السابقة المذكورة طرته إلى حضرته العالية، وبقبولها من جنابه العالي بالله وسروره من أجلها. ثم دعا لسمو الخليفة السلطاني ولفخامة الجنرال فرنكو وللوفد ولجميع المسلمين(٣٢).

ولما صلينا الجمعة من غده، ذهب الرهوني لزيارة نائبه العام وولده الأمير فيصل في إدارته العالية وإهدائه وسامه أيضا، "فدخلنا عليه - يقول الرهوني- وسلمنا وقام لملاقاتنا وصافحنا وعانقنا وأظهر الفرح والسرور بملاقاتنا قدرا عظيما، وهنأنا بالحج والزيارة، ثم سألنا عن سمو مولانا الخليفة وعن الجنرال فرنكو، وأثنى كثيرا على سموه وعلى الجنرال فرنكو وخصوصا بتيسير هذا الوفد المغربي الذي هو غرة جمال في وجه هذا العصر، وتمنى أن تكون هذه العادة جارية مدى الأبد، وقال لنا: إن من فضل الله أن هذا العام خرج سالما حتى إنه حج فيه ما يزيد عن مئتي ألف حاج، ومع ذلك لم يمت في أيام الحج كلها إلا نحو عشرة أشخاص، ماتوا موتا عاديا. فأجبناه بأن الفضل في ذلك راجع بعد الله إلى التدبيرات الحسنة التي يتخذها سموه في هذه البقاع الشريفة"(٣٣).

---

(٣٢) نفسه، ص ١٢٨- ١٢٩.

(٣٣) نفسه، ص١٣٠.

ح - هدايا الملك عبدالعزيز إلى الخليفة السلطاني

وقبل مغادرة الوفد الخليفي الديار المقدسة عائدا إلى المغرب، توجه لزيارة حاكم جدة، السيد محمد عيد الرواف، "قائم مقام نائب جلالة الملك الذي هو ولده السيد فيصل". وهناك وجد الرهوني أن وكيل الخارجية السعودية السيد حمزة، الذي كان قد سافر إلى بيروت... قد ترك للوفد المغربي "المكاتيب والأجوبة" فضلا عن "التحف التي أتحفنا بها جلالة الملك سمو مولانا الخليفة، والتي أتحفنا بها أيضا"، وهي - حسب وصف الرهوني "عبارة عن قطعة من حزام كسوة الكعبة المشرفة قدرها ٦ أمطار مطرزة فيها آية ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ [البقرة: ١٢٥] إلى قوله: ﴿وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [البقرة: ١٢٥]، ومعها كسوتان عربيتان مقصبتان بالذهب والفضة كل واحدة بعقالها وعبايتها، كما أهدى لكل واحد من الوفد قطعة من كسوة الكعبة الشريفة وكسوة عربية على الطراز السابق، وقطعتي من كسوة الكعبة دائرة مطروزة بسورة "الإخلاص" بالبسملة بحروف ذهبية كبيرة أخذ من سترة باب الكعبة المشرفة، فحُزنا ذلك كله وشكرنا جلالة الملك والوسائط، وجعلنا كل هدية في صندوق خاص، وصحبنا الكل في يدنا حتى دفعنا هدية مولانا الخليفة بيده الشريفة مع أجوبة جلالة الملك له على مكاتبه الشريفة"(٣٤).

٢ - ملامح من التطور العمراني بالمملكة العربية السعودية في عهد الملك عبدالعزيز

ثمة مجموعة من التدابير والإصلاحات العمرانية التي عرفتها المملكة العربية السعودية لفتت انتباه الرهوني وسجلها في رحلته. ويمكن القول: إن أهم تلك الإصلاحات التي نالت الحرمين الشريفين، خدمة الحجاج والمعتمرين.

---

(٣٤) نفسه، ص١٨٧.

أ - كسوة الكعبة

يقول الرهوني بعد أن تطرق لتاريخ كسوة الكعبة: "... ولم تزل كسوة الكعبة تأتي من مصر إلى أن قطعت عام ١٣٤١هـ، فكساها الشريف حسين بكسوة تركية كانت موضوعة بالمدينة المنورة، ثم وردت من مصر، إلى أن وقعت الوقعة المشهورة عام ١٣٤٥هـ بين المصريين وجنود جلالة السلطان مولاي عبدالعزيز السعودي، فانقطعت تلك الكسوة، وصار يعملها جلالة السلطان مولاي عبدالعزيز من خزينته، وأسس لها معملا جليلا بمكة المكرمة في هذا العام ١٣٥٥هـ الذي حججنا فيه"(٣٥).

ب - بئر زمزم

أما بخصوص بئر زمزم، فبعد أن يتطرق لخبر بدئها، وأصل تسميتها، ومن أصلحها في القديم من الخلفاء المسلمين، وما ورد في شرب مائه، يسجل أن: "جلالة الملك مولاي عبدالعزيز بن سعود قد أحدث سبيلين ملازمين لمقصورة بئر زمزم، وجدد سبيلا آخر، وكتب عليه اسمه، جزاه الله خير الجزاء"(٣٦).

جـ - أول ساعة في الحجاز: الساعة المكانية

ومن مآثر الملك عبدالعزيز إدخاله أول ساعة إلى الحجاز، سماها الرهوني بـ "الساعة المكانية"، أضافها الملك إلى تجهيزات ببئر زمزم، فيقول: "وكان فوق زمزم ساعة شمسية تسمى المزولة، والآن بالمسجد ساعة مكانية ترى حركاتها من مكان بعيد، ويسمع صوت دقاتها كذلك، وهي مضبوطة موضوعة في برج فوق دار الحكومة، تشرف على المسجد الحرام وعلى جميع مكة، وهي من مآثر جلالة الملك مولاي عبدالعزيز بن سعود، وضعها عام ١٣٥٣هـ، وهي أول ساعة بالحجاز، فجزاه الله خير الجزاء"(٣٧).

---

(٣٥) نفسه، ص٨٩-٩٠.

(٣٦) نفسه، ص٩٩.

(٣٧) نفسه، ص١٠١.

د - إنارة المسجد الحرام

لقد وقعت في المسجد الحرام إصلاحات وترميمات وعمارات في مدة جلالة الملك، الإمام عبدالعزيز بن عبدالرحمان آل سعود، ومن بين هذه الإصلاحات هناك تلك المتعلقة بالإنارة. فقد كان المسجد ينور بقناديل معلقة على خشب موضوعة بين أساطين الحرم إلى أن أناره الشريف حسين بمنارات الغاز عام ١٣٣٥هـ، ثم أدخل إليه نور الكهرباء في ١٨ رجب عام ١٣٣٨هـ، "ثم أتى بمكينة قوة ثلاثة كيلو وات، ثم في سنة أربعين أتى بمكينة قوة ست كيلووات ونصف، وفي سنة ١٣٤٦هـ تبرع الحاج داود أتابا، أحد تجار الهنود بمكينة ذات قوة ٣٠ كيلووات وجعلت في المحل الذي هي فيه الآن، وأمر جلالة السلطان مولانا عبدالعزيز بن السعود بإبلاغ اللمبات ألفا موزعة على المطاف وبقية المسجد الحرام، وأضاف إلى ذلك فنارات اللوكس زيادة في الإنارة، وفي عام ١٣٥٩هـ أمر جلالته بزيادة مكينة أخرى وبإحداث عدة قناديل كهربائية، وفي سنة ١٣٥٣هـ أهدى الحاج محمد خان الهندي لمكة مكينة كبيرة قوتها ٣٤ كيلووات وزيدت أضواء ومصابيح وثريات"، وكان من نتائج هذه الإصلاحات أن "صار ليل المسجد الحرام نهارا" حسب ارتسام الفقيه الرهوني(٣٨).

هـ - الصفا والمروة

لقد لحظ الرهوني أن المسعى؛ أي: الشارع الذي بين الصفا والمروة، قد ظل على حالته من غير تظليل ولا غيره، إلى أن جعل عليه الشريف حسين مظلة عام ١٣٣٩هـ تظل من باب العباس إلى المروة، إلا أنه يستطرد ويقول: "وقد أصلحت في مدة جلالة الملك الحالي، وقد رصف الشارع المذكور في مدته أيضا عام ١٣٤٥هـ، وفي هذا العام؛ أي: عام ١٣٥٦هـ، بعدما وردنا من الحج بلغنا أن الشارع المذكور سيبلط بالحجارة، جزى الله الجلالة المولوية خير الجزاء"(٣٩).

---

(٣٨) نفسه، ص ١٠٢- ١٠٣.

(٣٩) نفسه، ص ١٠٣- ١٠٤.

و - توحيد إمامة الصلاة

ومن الإصلاحات المهمة التي أدخلها الملك عبدالعزيز تلك المتعلقة بتوحيد مقامات الأئمة؛ فقد لحظ الرهوني أن "بالمسجد الحرام أيضا مقامات الأئمة الأربعة، وقد أحدثت بين القرن الرابع والخامس، وقد ذكرها ابن جبير في رحلته التي كانت عام ٥٧٨هـ. منها مقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام، ومنها مقام الشافعي، وهو خلف مقام سيدنا إبراهيم... ومنها مقام مالك، وهو قبالة الركن اليماني، ومنها مقام الحنفي، وهو قبالة الميزاب، ومنها مقام الحنبلي، وهو قبالة ما بين الحجر الأسود والركن اليماني، وكان يصلي أولا الشافعي، ثم المالكي والحنبلي في آن واحد، ثم الحنفي إلا المغرب، فكان الأئمة الأربعة يصلونها في آن واحد، فيقع في ذلك من الاختلاط والسهو ما لا يخفى، ولذلك وحد جلالة الملك مولاي عبدالعزيز بن سعود إمام الصلاة وجعله حنبليا، جزاه الله خير الجزاء، كما جعل إمام الجمعة والأعياد إماما واحدا حنبليا، ولم يبق ذلك الاختلاط وكثرة الأئمة"(٤٠).

ز - البنية التحتية وطرق المواصلات

لا يشعر الإنسان إلا والسيارة قد اصطدمت بتلك الحجارة فارتفعت وارتفع من فيها

من النصوص الطريفة التي يقف عليها قارئ رحلة الرهوني تلك المتعلقة بظروف السفر برا بين مكة والمدينة؛ فالمسافة الفاصلة بين المدينتين تبلغ ٥٢٥ كم، وهاك وصف هذا الطريق الذي كانت السيارة تقطعها في ١٤ ساعة، وهو وصف قد يشتم منه شيء من السخرية والتهكم: "تقطعه السيارة... في جبال رمال رخوة وفي داخل بعضها الحجارة لا يشعر الإنسان إلا والسيارة قد اصطدمت بتلك الحجارة فارتفعت وارتفع من فيها، أو توعرت في تلك الرمال حتى كادت تغيب، أما كراريطها [جراراتها] فتغيب عدة مرات، وتضطر للنزول والاستعانة بالبوادي على إخراجها بإعطاء بعض

---

(٤٠) نفسه، ص١٠١- ١٠٢.

هلالات، هذا والسائق لا يبالي بالسيارة ولا بمن فيها، بل يسرع إسراع السائر في الطريق المعبدة، فيسير بسير الستين والسبعين والثمانين كيلومطر في الساعة، ونحن معه في حالة شديدة، وكثيرا ما نغلظ له في القول، وهو يذكر الله، ويسوق السيارة على جهدها، ولكن من لطف الله وبركة تلك البقاع الشريفة لم يقع لنا ما يؤذينا، ولم نسمع بوقوع آفة لأحد من الحجاج، بل الكل مسرور بكل ما يقع له، وكيف لا يكون مسرورا وقد كان يقطعها على ظهر الجمال في ١٠ أيام، مع أنها لو كانت معبدة لأمكن السفر فيها في نحو ٧ أو ٨ ساعات"(٤١).

على أن الطريق البري لم يكن الوحيد الرابط بين المدينتين المقدستين؛ فقد عاين الرهوني "طيارات مصرية تقل الحجاج من جدة إلى المدينة في ظرف ساعة ونصف، ومنها إلى جدة في مثلها، وأنهم يتفقون مع الحجاج إن شاء الله على ست ساعات؛ ثلاث ذهابا وإيابا، وثلاث زيارة ويرجع لمحله، وهي نعمة عظيمة لمن قدر عليها؛ لأن أجرة الركوب ذهابا وإيابا باللبرات ١٧ ورقا، ولكن إذا زيد عليها الكوشان، وهو عبارة عن ضريبة الحكومة، صار الجميع ٢١ لبرات ذهب، وهذا قدر فادح، ومع ذلك لما كنا بالمدينة المنورة وعزمنا على القفول، وقف بين أعيننا ذلك التعب، فبحثنا عنها فأخبرنا أن مدة النقل بالطيارات انقضت؛ لأنها كانت خاصة بمقام أغنياء المصريين من الحجاج، وقد رجعوا، والحمد لله على كل حال"(٤٢).

والجدير بالذكر أن وضعية الطريق البري بين مكة والمدينة كانت تستدعي إصلاحا مستعجلا، وهذا ما اقترحه أحد البيروتيين على جلالة الملك عبدالعزيز خلال استقبال وفود الدول الإسلامية لموسم ١٩٣٧م، كما اقترح عليه أن "يستخدم فيها أهل الحجاز الذين أبدى تأسفه على حالتهم التعسة من الجوع والعري وغير ذلك". وقد أجاب

---

(٤١) نفسه، ص١٦٢.

(٤٢) نفسه، ص١٦٢- ١٦٣.

جلالة الملك بأن "الحكومة قائمة بكل ما يجب عليها وأنه لا مداخيل عندها تكفيها لكل شيء، وأن الطريق المقترحة يجب أن يقوم بها المسلمون في أقطار الأرض كلها؛ لأنهم هم المنتفعون بها، وعلى الحكومة أن تساعدهم بكل ما أمكن"(٤٣).

على أن الرغبة في إصلاح هذا الطريق كانت عامة لدى الحجاج من مختلف البقاع الأرضية، وهو ما عبر عنه الرهوني حينما زار بالمدينة المنورة "أميرها السيد عبدالله السديري، أحد أصهار جلالة الملك وأخواله... استدعانا للإكرام نحن وأعيان المغرب والجزائر وتونس، ومد لنا سماطا عظيما...، ثم انصرفنا عنه شاكرين بعدما تذاكرنا معه في عدة أمور؛ أهمها طلب إصلاح طريق المدينة ومكة، وحتى إن لم يكن إصلاح الجميع الآن يصلح الموضع المسمى بأبي كراع قرب رابغ؛ لأنه بسبخة تسيخ فيها السيارة حتى تغيب كراريطها، ويقع للناس فيها ضرر عظيم، فأجابنا بأنه يتمنى ذلك أيضا، ولكن الأمور بيد جلالة الملك"(٤٤).

ولم يتأخر الشروع في إصلاح هذا الطريق كثيرا، وبدأت الدراسات الفنية التمهيدية لذلك، فقد بلغ لعِلْم الفقيه الرهوني وهو بمكة "أن بنك مصر وجه المهندسين لتصميم الطريق بين مكة والمدينة، وأنهم قدروا لها ثلاثمئة ألف وستين ألف لبرة مصرية، وأنهم عازمون على الاتفاق مع جلالة الملك على تعبيدها، يسر الله ذلك في أقرب وقت، وهيأ أسباب الراحة كلها لحجاج بيت الله الحرام، وربما إلى عرفة". وبالفعل، ما أن عاد الرهوني إلى المغرب حتى بلغه "بطريق يقين أنهم شرعوا هذا العام في تعبيد طريق جدة إلى مكة، وأنها في الموسم القادم عام ١٣٥٦هـ تكون تامة إن شاء الله، جزى الله المحسنين خيرا(٤٥).

---

(٤٣) نفسه، ص١١٥- ١١٦.

(٤٤) نفسه، ص١٦٨.

(٤٥) نفسه، ص١٦٢.

وفي يوم الخميس المذكور وهو ٢٨ من الحجة عام ١٣٥٥هـ موافق ١١ مارس ١٩٣٧م أقام الوفد المغربي بالباخرة حفلة شاي لرجال الحكومة السعودية الحاضرين بجدة، وللوزير المفوض لدولة إيطاليا وقنصلها، ورجال مفوضيته ورجال القنصلية...، ولما تم الأكل والشرب قام الفقيه الرهوني، وألقى كلمة مما جاء فيها:

"إخواني سادتي، إن المقصود من هذه الحفلة التي أقيمت بهذا المركب الفخم والحامل لها ولاء الوفود لبيت الله الحرام وزيارة قبره(٤٦)... هو أولا: توثيق العلائق الرابطة بين سمو الخليفة ورعيته من جهة، وبين جلالة الملك المنصور المؤيد مولانا عبدالعزيز بن عبدالرحمان آل فيصل السعودي من جهة أخرى، ورعيته توثيقا تاما مبنيا على الأخوة الإسلامية التي لا تنفصم عراها بحول الله، ما دامت الليالي والأيام، حتى نلقى الله جميعا فنكون من المتحابين في الله...، وثانيا: نقدم لحضراتكم هذه الحفلة كبرهان ساطع على ما تكنه صدورنا، وتنطق به ألسنتنا من الشكر الواجب علينا شرعا وطبعا لجلالة الملك، ورجال حكومته، وسائر رعيته الكريمة، على ما أسدى إلينا الجميع من حسن المقابلة والحفاوة والإكرام، حيث أقمنا وارتحلنا، حتى كنا بشهادة الله كأننا بين آبائنا وإخواننا وأبنائنا، ولذلك كنا نلفت أنظار العالم الإسلامي الذي حج هذا العام المبارك إلينا، وكنا ككعبة القصاد للسلام علينا، والسؤال عن أحوالنا، كل ذلك نشأ عن اعتبار جلالة الملك ورجال حكومته، وإنزالنا في دور ضيافته الخاصة، وإركابنا المراكب الرفيعة مجانا وإحضارنا في جميع محافله التشريفية، وإحلالنا في الأماكن الرفيعة، والتنويه بنا بين الخاصة والعامة"(٤٧).

---

(٤٦) لا يجوز السفر لغرض زيارة قبره ﷺ فقط.

(٤٧) الرهوني، الرحلة المكية، ص ١٨٨.

خاتمة:

خلاصة القول: إن رحلة أحمد الرهوني أتت في ظروف سياسية خاصة كانت تمر منها الدولة الأسبانية الفارضة حمايتها على المنطقة الخليفية من المغرب، وعاصمتها تطوان، وكان غرض الجنرال فرانكو من تنظيم تلك الرحلة الحجية، وإسناد رئاستها إلى أحد أشهر علماء المدينة، هو كسب الرأي العام المغربي، وتلميع صورته أمام المسلمين قاطبة، وتأليبهم ضد خصومه الاشتراكيين، وهو يخوض حربا أهلية طاحنة ضدهم بأسبانيا، وقد انعكست هذه الخلفية في نصوص الرحلة. من جهة أخرى قيد الرهوني في رحلته عددا مهما من الشهادات الحية، والارتسامات الشخصية حول الحياة العامة بالحجاز (مجتمعا وحكومة وتطورا عمرانيا)، وبصفة خاصة حول شخصية الملك عبدالعزيز آل سعود.

ومن نافلة القول: أن "الرحلة المكية" ما تزال زاخرة بالنصوص التاريخية القيمة التي تبرز مدى متانة الروابط الأخوية التي جمعت المملكة العربية السعودية بالمغرب، فضلا عن أنها غنية بالإشارات الحية، سواء تلك المتعلقة بمشاهدات الرهوني بالأراضي المقدسة، أو بمصر أو بالبلدان الأوروبية (أسبانيا أو إيطاليا). ولعل الفرصة تتاح لنا أو لغيرنا، للانكباب على تحقيق نص هذه الرحلة وإعادة طبعها، لتصبح في متناول الجمهور الواسع من القراء والمثقفين.